ثقبٌ في ذاك الجدار

من جديد حبست أنفاسي وزحفت بجسدي الهزيل فوق تراب الأرض. حريصاً كنت على أن لا يسمع دبيب أطرافي حتى من يبعد قيد الأنملة عني وأن أبدو كشبح لا يُرى أو كثعلب يتسلل بصمت وحذر نحو فريسته. وصلت الجدار، مارد إسمنتي يطال عنان السماء ويفصلني عنها، لامسته بأطراف أناملي بحذر وتحسسته بيد مرتجفة وقلب وَجِل ، تسارع لهاث أعماقي المضطربة وأنا أمرر يدي برفق على سطحه الخشن حتى تلاشى ذعري الذي يسكنني كلما ألمس جداري هذا وحلّت مكانه طمأنينة قلقة، فأخذت إلى صدري نفساً عميقاً استعدت به بعض توازني وخففت به شيئاً من اضطرابي، تفحّصت المكان حولي حتى اطمأن قلبي تماماً، فاستدرت نحو الجدار ووضعتُ عيني على ثقب صغير به قد صنعته طيلة ليالي ظلماء مضت بصبر وأناة، وأرسلت نظر عيني بعيداً.

هيفاء فارعة الطول على مرمى النظرة مني تجلس وتمشط حرير رأسها تحت شمس آذار الساطعة. يافعة، نضرة ، شهي وصلها، ولها سحر تنتشي به بواطن قلبي الجاف ويرقص لها طرباً. وددت لو كان لي ألف لسان لأناديها، وألف يد لأمدّها من هذا الثقب نحوها، عيني التصقت بذاك الثقب تتأملها كما فعلتُ قبل ذلك كثيراً جداً، ومنذ أن وعيت دنياي كنت لا أراها إلا وتزداد بهاءً ويزداد أنا شقائي، وإن فصلني عنها هذا الجدار فقط فخوفي وضعفي أوهماني بأنها تبعد بعد القمر عن يدي هذه ووصلها مغامرة جريئة قد تشل، وقد تكون قاتلة . بدأ الغليان في قلبي يزداد، وتفجّرت أنهار أعماقي

الحارة والملتهبة. ساحات وغى باتت قِفاري الساكنة و البليدة، وأنا فيها المغوار الذي رفع الرايات وتمرّد على الخنوع والخوف والرعب والسجان وحتى على هذا الجدار، و ......

- يا ولد، أين أنت..؟!

أبي يناديني لأقضي بعض حوائجه أو أبتاع له السجائر ربما، دبّ الذعر في سكون روحي، وشتّت صوته سكينتي فهببتُ عن الثقب كمن لذغته أفعى أو كوته جمرة متقدة، إذ صوت أبي في ذاكرتي هو الرعب الكبير.

- أين أنت يا زفت..؟!

عدت كما أتيت متسللاً حتى لا أفزع هيفائي في ظهورها تحت شمس آذار، وحتى لا أكشف خطيئتي هذه. على عجل قضيت حوائج أبي ووقفت أمامه مطأطأ الرأس أرمقه بطرف عيني رعباً وهو يتأملني من رأسي حتى أخمص قدمي احتقاراً. حدّق بي وأطال صمته كثيراً، بثّ الخوف في نفسي وتساءلتُ بحيرة (هل شعر بأني أحمل بريق السعادة في عيني..؟، أو لاحظ بأن بركاني على وشك أن ينفجر..؟)، كاد صمته أن يجبرني على البوح معترفاً بثقبي وهيفائي والمرج الفسيح خلف جداره الأحمق هذا، وقبل أن أفعل طردني بإذلال اعتدته منذ أن بات لي أبا وبتُّ أنا الولد الذليل والخانع دوماً، فوليته ظهري وعدتُ متسللاً بذات الحذر المضطرب لألصق عيني على ذلك الثقب الصغير في ذاك الجدار.

مازالتْ مسترخية كظبية في واحة وارفة الظلال، تعبث بشعرها الغجري الطويل وتخلل أصابعها بين خصلاته الكستنائية وترنو للبعيد، حيث تلتقي السماء الزرقاء الصافية مع الأفق الأخضر الشاسع. أي حياة هي تلك التي بقربها وأنا الذي اعتدت حياة الذل والهوان والسجن والاستغلال..؟، أي

ملائكة تختبأ خلف إشراقتها وبهائها وحسنها..؟، جرني حماس أفكاري وأحلامي بعيداً، الثقب الصغير هذا أخبرني عن حياة أخرى يحجبني عنها أبي وجداره هذا، وددت لو أصبحتُ نفخة دخان لأهرب من الثقب بعيدا حيثما أشاء، و وددت لو ملكت الجرأة لأكسر الخوف والصمت والقيد وأحطم الجدار وأمتزج بالهيفاء وأشتم عبقها حتى الثمالة، هل آذار سيمنحني القوة لو حاولت ..؟، أغمضت عيني وسلمت كياني إلى حلمي الأعز بأن أملك قوة تذيب هذا الجدار وكل أسوار الخوف في أعماقي، عقود مرّت عليَّ وأنا أترنح من هول خوفي وذلي والهيفاء يفصلني عنها جدار أصم وأب ظالم. شعرت بأن لي قوة ألف بغل قادرة على تحطيم قيدي هذا، وتسلل خوف صغير في باطني من ألا أفعل فأبقى كسيراً وذليلاً . تلذذت بحلمي وقوتي وحياتي لو تحررت، سافرت عالياً نحو النجوم حتى طاولت عنان السماء الزرقاء، نشوة عشتها للحظات كما عشتها كثيراً قبل هذا وقد حلّقتْ بي في أعالٍ فسيحة، وعند ذروتها شعرتُ بيد ثقيلة تطبق على كتفي بعنف، فهببتُ فَزِعاً وقد تلاشى حلمي كفقاعة من الصابون في رياح عاتية هوجَاء. إنها أمي، كانتْ تقف خلفي ومن عينيها تتطاير نظرات شك وشر وصامتة هي بصمت لا يوحي بالخير أبداً، فأدركت بأن مصيبة قد اقتربت مني، وبأن حياتي اقتربتْ من المحك، وهي على وشك الانفجار. صدق ظني بآذار وعذوبته إذاً، وحياتي قد أقبلتْ به على منعطف كبير. جلستْ أمي القرفصاء بعد أن أبعدتني بخشونة وصمت، وفوق ذلك الثقب ألصقتْ عينها بحذر المتردد والمتشكك.

- يا ابن الكلب.

سرّي الصغير قد انكشف، وثقبي العزيز في ذاك الجدار الذي واضبت على حفره ليال متعاقبة قد بات يتربص بي،

وذاكرتي نشطت فجأة واستعادت بلحظة الخوف هذه كل بطش أبي وظلمه وجداره وسوء عقابي حتى إن عطستُ العطسة، استعدت بلمحة عين كل كبريائي المفقود وكرامتي المهانة وقوت يومي المسلوب، لم أكن إلا كحمار في نظر أبي، والآن ماذا سيفعل حيال ثقبي هذا الذي خرق جداره العتيد وكسر ثوابته واخترق محرماته وهو الذي صبغ دنياي بلون رمادي واحد منذ أن كان أبي وربّ حياتي..؟، لحظات كالجمر تكويني مرّتْ علي وأمي تكيل لي السباب والتقريع والصفعة إثر الأخرى على وجهي ورأسي، تثائب الوحش النائم في عمق نفسي واستيقظ، كسر القيد وصرخ من كهف روحي العميق (هو الموت، ولا مذلَّتُكم بعد اليوم)، فنهضتُ كعملاق وانتصبت واقفاً، لأول مرة أعرف بأن لي قامة أطول من قامة أمي بعد أن أمضيت عمري مطأطأ الرأس لها، أدرت ظهري، وأطلقت العنان لقدمي لتركض في المرج الترابي أمامي غير آبه بأشواكه وحجارته الحادة، لم يكن في رأسي إلا فكرة النجاة بعد أن حدّق الموت بي وافتُضِحَ سرّي الصغير ، ولم أعد أسمع إلا صوت الوحش الناهض بداخلي يصرخ بقوة (هو الموت، ولا مذلَّتُكم بعد اليوم).

ركضتُ بسرعة وكلي إصرار على أن لا أنال من العقاب شيئاً كما نلتُ منه طوال حياتي الماضية، سأتحدى أبي وأمي وجدارهما، وسأخرج من ثقبي الصغير هذا نحو المرج والهيفاء، فازداد عزمي وتلاشى خوفي وقد أصبحت أمام الموت وجهاً إلى وجه، ناورت وتحايلت وأنَّى توجهت كان الجدار يقف في وجهي عاليا، إلا أني أصبحتُ أراه وكأنه هشٌ كورق التوت، وربما بلمسة مني قد يسقط ويصبح ركاماً. ركضت نحوه وحاولت تسلقه كالقط الهارب من مطارده، وأمي كانتْ خلفي تنهال علي بما استطاعت يداها أن تلتقط من حجارة وأحذية وزجاج مكسور.

صوت أبي يرتفع إذ هو يقترب وقد نهض من مرقده واتجه نحونا، عَجِزْتُ عن الجدار وتسلقه لأهرب بعيداً عن الموت والذل، فلنْ أُذَلَ بعد اليوم، هكذا قررت متمرداً وليكن ما يكون بعدها، تذكرتُ ثقبي في ذلك الجدار، وشعرت بخفة في روحي وقد تحررت من قيد خوفها وخنوعها أخيراً، فخيل إلي بأنها قادرة على النفاذ بجسدي من ثقب الجدار هذا نحو الهيفاء خلفه، ابتعدت عن الجدار مرّة أخرى وركضت نحوه بكل قوتي، خلال الثواني القليلة التي مرّت حتى وصلته شاهدتُ من جديد حلمي العزيز، يدي تمسك يد الهيفاء فوق المرج الأخضر الفسيح خلف هذا الجدار، بسرعة اقتربتُ منه وارتطمت بجسدي الهزيل به حتى سمعتُ صوت تكسّر عظامي، نهضت قبل أن تصل الأيادي إليّ وركضت ثانية نحو الجدار وضربت به رأسي بقوة أفقدتني قدرتي على النهوض، فانهرتُ أمامه بقايا حطام آدمي، فتحت عينيّ فكانت أمي تهمس في أذن أبي وتشير نحو الثقب في ذاك الجدار، ألصق أبي عينه عليه ونظر من خلاله، أدام النظر ومن ثم نظر نحوي، قرأتُ دهشة في ملامح وجهه وهو يقترب مني ببطيء، وشاهدتُ أمي من خلفه تبتسم ابتسامة التشفي، أغمضتُ عيني وسلمتُ أمري للقدر، يبدو إن عقابي هذه المرّة سيكون مميتاً، فالذنب كبير والمعصية لا تغتفر في عرف والدي، فهذا جدار محرّم لمسه في بيتنا، وثقبي له يستوجب الموت والذل والهوان كما يقول والدي.

استجمعت قواي المتبقية، وابتسمت ابتسامة المنكسر، فتحت فمي، وبما بقي لي من عزم صرخت بصوت عالي ولأول مرّة في حضور أبي وأمي:

- هو الموت، ولا مذلّتُكم بعد اليوم.